مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 17، العدد 01، 15 جانفي 2021، ص ص576-588

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

العقائد السنوسية في الشعر الملحون الجزائري

–قراءة في الأنثروبولوجيا الدينية في النص–

Senussi doctrines in Algerian Malhoun poetry
- Reading in religious anthropology of the text -

د. عبد القادر لصهب *

المركز الجامعي مغنية–الجزائر–

lashababdelkader@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/07/31 تاريخ القبول: 2020/09/24

ملخص:

يعدّ الإمام محمد بن يوسف السنوسي من أقطاب الأشعرية في المغرب الأوسط، والشمال الإفريقي عموما ، ولقد كان لمؤلفاته في العقيدة ، والمعروفة بالعقائد (الصغرى – الوسطى – الكبرى) صدى واسعا في المنظومة العقدية بالمنطقة ، مما حمل العديد من العلماء على شرحها والتعليق عليها ، أو نظمها شعرا لتسهيل حفظها لطلبة العلم .

ولم يكن الشعر الملحون ، في خضم تلك الحركية الثقافية الملفتة للعقائد السنوسية ، متقوقعا على ذاته أو منزويا بعيدا عن المشاركة في تقديم هذه العقائد للطبقات الشعبية بلغة تفهمها وتتذوقها ، في قالب فني طبع الحياة الثقافية الجزائرية ، خصوصا بعد القرن السادس عشر الميلادي .

ومن خلال هذه الورقة البحثية سنحاول عرض إحدى منظومات الشعر الملحون التي توخت شرح "العقائد" وتقريبها للعامة ، وهي منظومة الشيخ الأخضر بن خلوف ، والتي كانت تدرّس / تلقّن في الزوايا والكتاتيب ، عارضين أثر عقائد السنوسي في الحياة الثقافية والفكرية بالجزائر.

الكلمات الدالة: العقائد السنوسية – الشعر الملحون – الذات – الأسماء – الصفات .

Abstract:

Imam Muhammad ibn Yusuf al-Sanussi is one of the leaders of Asharism in Central Morocco and North Africa in general. His writings in the Creed, known as the (small-central-great) doctrines, have a wide resonance in the region's Stochastic system, which led many scholars to explain and comment on them. Organized poetry to facilitate the conservation of science students. In the midst of the remarkable cultural movement of the Senusian faiths, the melodic poetry was not confined to itself or from a home, far from participating in presenting these creeds

* **المؤلف المرسل**: عبد القادر لصهب، **الايميل**: lashababdelkader@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

to the popular classes in a language that they understood and tasted in the art of printing Algerian cultural life, especially after the sixteenth century.

Through this paper, we will attempt to present one of the saline systems that sought to explain the "beliefs" and bring them closer to the public, the system of Sheikh Green Ben Khloof, which was taught / taught in the corners and the katebat, exhibiting the impact of the beliefs of Senussi in the cultural and intellectual life in Algeria.

Key words : Sinusian creeds; hair; melon; self; names; qualities

مقدمة:

شكلت العقيدة الأشعرية مرجعية عقائدية / كلامية اشتغل عليها عديد النخب الجزائرية ، باعتبارها منظومة عقائدية رسمية للقاطنة المحلية ، ومن الذين عملوا على شرحها والتأليف فيها نجد الإمام ابن يوسف السنوسي، الذي ترك مجموعة من المدونات التي عرفت بـ "عقائد السنوسي" ، وقد حاول البعض تقديم هذه العقائد على شكل منظومات شعرية ، تأسيا بالمنظومات النحوية والحديثية وغيرها ، ومنهم الشيخ الأخضر بن خلوف الذي نظم قصيدة في فن الملحون حاول من خلالها بسط هذه العقائد وتقديمها للتداول.

1 -أثر عقائد السنوسي في الحركية الثقافية والفكرية بالجزائر :

عاش الإمام محمد بن يوسف السنوسي في القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو عهد عرفت فيه الحواضر الإسلامية ، والمغرب الأوسط منها ، وضعا غير مستقر ، لا سيما في مجال العقيدة ، التي كان المسلمون لا يدركونها على حقيقتها بفعل الجمود الفكري والاجتهادي الذي اصطبغت به الحياة الثقافية والمعرفية للأمة حينئذ ، فقد كانت أبعاد شهادة " التوحيد " بعيدة عن مدارك العامة ، لأنهم لم يكونوا يفهمون أبعادها الروحية قبل التلفظية ، ولم يقفوا على أسرارها النورانية المتصلة بحقيقة الكينونة الشمولية للعقيدة الإسلامية.

فقد " كانوا يؤمنون بالله والرسول أشد الإيمان ، ولكن إيمانهم لم تكن تترتب عليه كل آثاره لأنه كان إيمانا عن وراثة لا يمكن أن يصدر عنه إلا تديّن منحرف وحياة لا تعرف غايتها ، ولا يعرف صاحبها ما هي الطريق التي يجب عليه أن يسلكها ليجعل منها حياة لها معناها الحق ، أو حياة له بها قيمة الوجود"(**ميمون ، الربيع : 1993، 28**).

وقد أدرك الإمام السنوسي ما للعقيدة الحقة السليمة من أثر في تقديم الصورة الحقيقية للإنسان عن وجوده وعن علاقته به وبخالقه ، باعتباره جزء من الوجود وجوهرا له ، فراح يكتب ما تيسر له في أمور العقيدة طارقا موالجها من مداخل علم الكلام ، متأثرا بثقافته الأشعرية ومصنفات حجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، وإن " اشتهر بكثرة الشروح وندرة التأليف الشخصي " (**سعد الله ، أبو القاسم 1998، 96/1**) ، وهذا بديهي ، فقد أثّر أبو حامد الغزالي بتصانيفه وغزارة علمه وجلاء حججه في علماء المغرب الإسلامي ، وهو " تأثير يفسّر لنا بما لا مجال للشك فيه حياة الإمام السنوسي العلمية وحركته الإصلاحية للنهوض بالعالم الإسلامي في عصره ، والارتقاء به إلى فهم عقيدته على حقيقتها بدراسة عقلية ومنهجية ، ذات درجات لعلم الكلام ، أو أصول الدين أو الفقه الأكبر ،كما يقول الإمام أبو حنيفة – رضي الله عنه – من زاوية كلمة الشهادة بالضبط ، أو أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله " (**ميمون ، الربيع : 1993، 28**).

ولقد أشار الربيع ميمون إلى إدراك الإمام السنوسي لأوضاع عصره مما دفعه إلى " وضع كتب في االعقيدة ، أو في علم الكلام ، يتعلم منها المسلمون ، على اختلاف درجاتهم ، العقائد التي يقوم عليها دينهم بالبراهين القطعية ، فيحققونها ويتحققون منها ويتمسكون بها ويرفضون ما سواها ويبنون عليها فروع دينهم ، ويتحجرون بمعرفتهم لها ،كل حسب مستواه " (**ميمون ، الربيع : 1993 ، 30**).

ولقد أثرت عقائد الإمام السنوسي في المجتمع الجزائري أيما تأثير ، خصوصا فيما يتعلق بتوجيه الأذهان إلى المعرفة العقلية بوجود الخالق – عز وجل – واعتبرت من المراجع الرئيسة في العقيدة ، وكذا من مصادر علم الكلام في المنظومة الفكرية الجزائرية .

ويذهب الأستاذ فوزي سعد الله في هذا الصدد إلى أن " العقائد السائدة لدى الجزائريين هي عقائد الأشعري ، وهي عقائد جمهور أهل السنة ، وكانت مؤلفات محمد بن يوسف السنوسي في العقائد هي المصدر المحلي لدراسة علم الكلام ، وقد اصطبغت هذه المؤلفات بالصبغة الصوفية . ورغم أن السنوسي كان يجمع بين علمي الظاهر والباطن فإن شارحيه ومحشّيه ودارسي مؤلفاته قد مالوا ، تبعا لروح العصر، إلى علوم الباطن " (**سعد الله ، أبو القاسم : 1998 ، 92/1**).

وقد كان من آثار قيامه لإيضاح عقائد الإيمان الأشعرية على حقيقتها للمسلمين ، على اختلاف طبقاتهم، أن انتشرت كتبه ومؤلفاته عبر الأرجاء ، ومنها " المقدمات " و " صغرى الصغرى " و"

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الوسطى" و"الكبرى " ، وكثرت عليها الشروح والحواشي ، وتلقاها جمهور المسلمين بالقبول والإقبال عليها مدارسة وتلقينا .

وتلك هي مؤلفات الإمام في العقيدة ، و" التي يفتح كل منها أمام المقصود من الناس باب العقيدة على مصراعيه ، بما يتناسب ومستواه العلمي ، وبما يعدّه ليرتقي دائما في مدارج كمالها بالفهم لها والتعاطف معها والتسامح في تعامله بها ، مع نفسه ومع المسلمين ومع الناس كلهم " (**ميميون ، الربيع : 1993 ، 32**).

وفي خلال ذلك العهد الذي شهد نوعا من الركود المعرفي والجمود الفكري انبثقت جهود الإمام السنوسي في التوحيد ، والتي شكّلت فاتحة لحركية فكرية وسمت المشهد العام للحياة الثقافية الجزائرية بطابع من الانفتاح على مؤلفاته ، سواء بالشرح أو التفسير أو التعليق والنقد .

وقد كان حضور مؤلفات الإمام السنوسي في التوحيد حضورا لافتا ، إذ سيطرت مؤلفاته على دارسي علم الكلام – حينئذ – و" لم يكن ذلك مقصورا على الجزائر وحدها ، بل تجاوزها إلى معظم الأقطار العربية والإسلامية ... وأهم مؤلفات السنوسي المشار إليها هي ما يعرف بالعقائد السنوسية ، وهي العقيدة الصغرى والعقيدة الوسطى والعقيدة الكبرى ، ولكن أهم الجميع هي الأولى لوضوحها واختصارها، وهي المعروفة أحيانا باسم (أم البراهين) ، وليس معنى هذا أن العقيدتين الأخريين لم يهتم بها الدراسون، ولكن معناه أنّ جهودهم قد تركزت في التدريس والشرح حول العقيدة الصغرى ، ويليها العقيدة الصغرى فالكبرى " (**سعد الله ، أبو القاسم : 1998 ، 93/1**).

وقد " أثر الشيخ السنوسي في أجيال مختلفة عبر العصور ، فارتبطت به ثلة من المهتمين بفكره ، وخاصة منه العقائدي والمنطقي ، واتخذ سندهم إليه أشكالا – على ما قال المؤلفون العرب – منها التتلمذ له والقراءة له وحفظ إنتاجه والعناية به ودراسته دراسة تحقيق وتدقيق وملازمة مذهبه محبة والسعي إلى نشره والختم بمألوف آثاره ، ولقد رفع بعضهم عقائد السنوسي الأصيلة إلى درجة التوسل بها عتقا من النار ، وإلى الإجازة بها ، ولقد ترك صنف من المعجبين بالشيخ مكتوبات يختصرون فيها بعض أعماله أو ينظمونها شعرا أو يشرحونها أو يثنون على صاحبها أو يكتفون بالتأليف على منوالها " (**بوقلي حسن ، جمال الدين : 1997 ،247/1**).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وكثرت التآليف في شرح عقائد السنوسي ، كما حاول البعض أن يكتب على منوالها ، ومنهم من نظمها شعرا ، ومن ذلك منظومات محمد بن أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني ، المتوفي سنة 1116هـ (**بوقلي حسن ، جمال الدين : 1997 ،255/1**) ، وله :

- نظم صغرى السنوسي
- نظم صغرى الصغرى
- نظم العقيدة الوسطى.

وكذلك ممن نظموا في عقائد السنوسي نجد سيدي معزوز البحري المستغانمي ، " له نظم لمتن السنوسية، وهو في غاية البسط والبيان والتحرير والإتقان ، توفي حوالي حوالي 1250 هـ " (**بوقلي حسن، جمال الدين : 1997 ،255/1**) ، وكذلك محمد بن عبد الرحمن (الحافظ) ، له في توحيد السنوسي منظومة وشرحها سماه " الموجز المفيد " (**بوقلي حسن ، جمال الدين : 1997 ،255/1**)، وقد كثرت الأراجيز والمنظومات في عقائد السنوسي ، ومن ذلك أيضا أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسن الجزائري ، الذي يرجز في العقائد الأشعرية على الطريقة السنوسية فيقول (**بوقلي حسن ، جمال الدين : 1997 ،255/1**) :

يَقُـولُ رَاجِـي رَحْـمَـةَ المُهَيْمِنِ مُحَمَّـدُ نَجْـلُ أَبِي عَبْدِ المُؤْمِنِ
الحَـمْـدُ لِلّهِ وَصَـلَّـى رَبِّـي عَلَى النَّبِـي وَآلِـهِ وَالصَّـحْبِ
وَبَعْدُ ، فَالقَصْـدُ بِهَـذَا الرَّجْـزِ جَـمْعُ المُهِـمِّ بِكَـلاَمٍ مُوجَزِ
مِـنْ وَاجِـبِ اللّه وَالـرَّسُـولِ وَمِـنْ فُـرُوعٍ لِـذي التَّحْصِـيلِ
اللّهُ مَـوْجُـودٌ قَـدِيـمٌ بَاقٍ مُخـَالِـفٌ لِلـخَلْـقِ بالإِطْلاَقِ
وَقَـائِـمٌ بِنَـفْسِـهِ وَاحِـدٌ ذَاتًا وَفِـعْـلاً صِـفَـةً يُعْتَـقَدُ
ثُمَّ الذِي عَلَى الإِلَـهِ يَسْتَـحِيـلُ العَـدَمُ الفَنَا الحُـدُوثُ المَثِيـلُ

وكذلك نظم الشيخ محمد بن يلس التلمساني في عقائد السنوسي ، فقال (**بوقلي حسن ، جمال الدين : 1997 ،261/1**) و (**بن يلس ، محمد : 1371 هـ ، 33–42**).

الحَمْـدُ لْـربْ الأنَـامْ وَالصَّـلاَةُ وَالسَّـلاَمْ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

عْـلَى مَـصْبَـــاحْ الظَّـــلاَمْ الـــرَّؤُوفُ الـــرَّحِـــيـــــمْ
مَـــصْبَـــاحْ لِكـــلُّ مَـــوْجُـــودْ وْنُـــورْ عَـــمْ الـــــوُجُـــودْ
إِجْـــمَـــــالاً وَتَعـــــــدُّدَا فَخَصِّـــصْ أَوْ عَـــــــمِّـــــمْ
وُجُـــودُ المَـوْلَى الجَلِيـــلْ عَـــــــمَّ العَـــالَـمَ الحـــفِيلْ
وَالـــعَـــــدَمْ مُسْـــتَحِيـــلْ فَنَـــــــزِّهْ الـــــــدَّايَـــمْ
نَـــــــزِهْـــهُ عَـــنِ التَّنْـــزِيهْ وَانْـفِ جَـــــمِـــيعَ التَّشْبِـــيهْ

وكثرت المنظومات في العقائد السنوسية ، مما لا يسع المجال لذكرها كلها ، وراح كثير يتوخى منهج الإمام السنوسي في البرهنة والتعليل لينظم على منواله ، وبذلك كانت " العقائد " بمثابة الباعث أو الفاعل المحرّك في الحياة الثقافية والفكرية الجزائرية .

كما أن الزوايا والمدارس القرآنية ، التي كانت منتشرة آنذاك بمختلف حواضر عدوة المغرب الأوسط، احتفت بعقائد الإمام السنوسي وجعلتها ضمن االبرامج الرئيسية في منظومتها التعلمية ، خصوصا فيما تعلّق بعلوم العقيدة وعلم الكلام .

وكما أثّرت عقائد السنوسي في المنظومة الفكرية الرسمية فعلت في الثقافة الشعبية ، إذ خصّ بعض الشعراء ، من ذوي الثقافة الدينية ، بعضا من شعرهم للعقائد ، ونظموها بلهجة عامية قريبة من أذواق الجماهير الشعبية وثقافتهم ، ومن ذلك منظومة الشيخ الأخضر بن خلوف ، التي نحاول مدارستها والوقوف عندها .

2 -عقائد السنوسي في منظومة الشيخ الأخضر بن خلوف :

شكّل الشعر الملحون أداة نقل معرفي للعديد من العلوم ، وكما كان الشعر الفصيح ينظم في شكل منظومات وأراجيز في الفقه والنحو وعلم الكلام والعقائد الصوفية وغيرها ، فقد اتخذ البعض من الملحون وسيلة لتبسيط بعض النظم المعرفية والعقائدية حتى تستسيغها عقول العامة ، ومن ذلك منظومات في العقائد والتصوف والطريقة وغيرها ...

ولا ينكر أحد أن الكثير من قصائد الملحون نجدها محمّلة بزاد معرفي وفلسفي متضمّن مذهب الناظم ومرجعيته التي أسس عليها نصّه ، وقد اشتهر بهذه الأراجيز والمنظومات شيوخ عدّة ، ففي التصوف والطريقة نجد قصائد الشيخ محمد بن يلّس التلمساني وكذا الشيخ قدور بن عاشور الزرهوني الندرومي ،

وكذلك منظومات لعميد شعراء الملحون بالجزائر " الأخضر بن خلوف " ، ومنها منظومته التي قالها عارضا عقائد الشيخ ابن يوسف السنوسي من خلالها ، وهي منظومة لاقت إقبالا شعبيا كبيرا.

والمنظومة التي ألفها شاعر الملحون الجزائري الأخضر بن خلوف (عاش بين القرنين التاسع والعاشر الهجريين) (**ابن خلوف ، الأخضر : د.ت ، 23–31**) تقع في اثنتين وستين (**62**)بيتا ، وهي غير موجودة بديوانه المطبوع وإنما انفرد بنشرها جمال الدين بوقلي حسن ، من خلال دراسته الموسومة بـ " الشيخ ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع " (**بوقلي حسن ، جمال الدين : 1997 ، 103/1–106**) ، وقد أخذها رواية عن " الحاجة عويشة ستوتي " ثم راجعها " السيد جيلالي قهواجي " ، ويبدو أن هذه المنظومة كانت تلقّن عن طريق المشافهة في الزوايا والكتاتيب القرآنية ، إذ لم نجد في مجاميع الشعر الملحون ، أو حتى الدراسات النقدية التي تناولت هذا المعطى الثقافي بالدرس أو التحليل ، أي إشارة لها أو إحالة إليها .

والمنظومة في شكلها العام لا تختلف عن تلك المنظومات والأراجيز التي كانت تنظم في مختلف شعب العلم والمعرفة ، سواء في الطب أم اللغة والنحو أم الفلك أم العقائد أم غيرها ، اللهم فيما تعلّق بالجانب اللغوي ، ويبدو من خلال قراءتها أن الشاعر كان ملّما بعقائد السنوسي ، وهذا راجع إلى أن الفترة التي عاش فيها الشاعر عرفت انتشارا للثقافة الإسلامية بالجزائر ، إضافة إلى التكوين الثقافي والديني له .

ويستهلّ الأخضر بن خلوف منظومته بحمد الله والصلاة على نبيه الكريم ، ليدخل بعدها مباشرة في موضوعه ، وهي عادة أغلب المنظومات العقدية حينئذ ، حيث يقول الشاعر (**بوقلي حسن ، جمال الدين : 1997 ، 103/1**)

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الحَــمْدُ وَالشُّكْــرُ لِيهْ وَالصَّــلاَةُ عْلــَى نَبِيهْ
لاَ تَذْهَلْ لاَ تُوهَمْ فِيهْ بِذَا النَّــقْلِ وَالرُّسُومْ
الــوُجُــودُ وَالــــعــَدَمْ
ذَاتُــــــــــهْ ضِــــــــدُّهْ
لاَ سَابَــــــقْ لاَ شَــــــكْ لاَ
قَبْلُــــــــهْ وَهْــــــمْ
القِدَمْ رَاسْ السُّلُــوبْ كَالصَّابُونْ إِلَى الثُّــوبْ

فالله موجود ولا علة لوجوده ، بل هو علة كل موجود ، إذ الوجود واجب لله تعالى ، ويسمي الإمام السنوسي صفة الوجود " صفة نفسية " ، أي ذاتية غير مقترنة بوجود موجد ، فـ " الممكنات موجودة بالضرورة .... وكل موجود ممكن لا بدّ له من موجد ، وهذا الموجد إما أن يكون عين الممكنات ، وهذا باطل لاستلزام تقدّم الشيء على نفسه ، وإما أن يكون جزها ، وهذا محال لاستلزامه أن يكون الشيء سببا لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأول ، فلا بد أن يكون الموجد من غير الممكنات ... وغير الممكن إما أن يكون مستحيلا أو واجبا ... والمستحيل معدوم فلا يحق الوجود لغيره ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، فتعيّن أن يكون هذا الموجد واجب الوجود " (**الزغبي ، زاهر : 1979 ، 1290**).

والله قديم ليس قبله شيء ، وذلك هو لب العقيدة الأشعرية في الذات الإلهية ، فالله باق غير مشابه للحوادث ، يتصف بصفات القدرة والعلم والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام ، وهذه الصفات عند الأشاعرة قديمة ، إذ لو كانت حادثة لأحدثها الله في ذاته ، وهذا محال عندهم ، لأن الله ليس محلا للحوادث ، كما قالوا أنها محال أن تكون محدثة قائمةة بنفسها ، لأن الصفة لا تقوم بذاتها ، لكن هذه الصفات ليست مغايرة لبعضها البعض ولا هي مغايرة للذات .

وذلك لأن " معنى الغيرية جواز مفارقة أحد الشيئين على وجه من الوجوه ، ولما كان الله أزليا وكانت صفاته أيضا أزلية ، فلا يمكن تصور انفصال الصفة عن ذاته أو مغايرتها له ، كما لا يمكن تصور انفصال بعض الصفات عن بعضها الآخر " (**الفاخوري ، حنا ، الجر ، خليل ، 1982 ، 179**).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وفي هذا يقول الإمام السنوسي : " برهان وجوب مخالفته تعالى للحوادث فلأنه تعالى لو ماثل شيئا منها لكان حادثا مثلها ، وذلك محال لما عرفت قبل من وجوب قدمه تعالى وبقائه ، أما برهان وجوب قيامه تعالى بنفسه فلأنه تعالى لو احتاج إلى محل لكان صفة ، والصفة لا تتصف بصفات المعاني ولا المعنوية ، ومولانا جل وعز يجب اتصاف بهما فليس بصفة ، ولو احتاج إلى مخصص لكان حادثا ، كيف وقد قام البرهان على وجوب قدمه تعالى وبقائه " (**السنوسي ، أبو عبد الله محمد بن يوسف ، 2009 ، 28**).

فالوجود كله ينبثق عن وجود موجد يتصف بالقدم ، وصفاته كذلك ، لا يجوز عليه العدم .

الـــوُجُـــودُ ذَاتُـــهْ وَالـــعَـــدَمْ ضِـــدُّهْ

كما أن الإمام السنوسي وجد أن الموجودات لا تخرج عن أربعة ، وهي الغنى عن المحل المخصص (وهو الله) والمفتقر إليهما (وهو العرض) والمفتقر إلى المخصص فقط (وهو الجرم) والمفتقر إلى المحل فقط (صفات الله) ، أما الممكنات التي تناولها في الوحدة السادسة فهي لا تخرج عنده عن ستة ، وهي الوجود والعدم والمقادير والصفات والأزمنة والأمكنة والجهات ، وخصص الوحدة السابعة للحديث عن القدرة الإلهية والعلم والحياة والكلام الأزلي ، وختم مفهوم الوحدة الثامنة بتحديد مفهوم الأمانة والخيانة (**سعد الله ، أبو القاسم ، 1997 ، 1/ 97**).

وفي هذا يقول الأخضر بن خلوف (**بوقلي حسن ، جمال الدين : 1997 ، 103/1**) :

القَـــايَـــمْ لآ يَفْتَـــقِرْ
بِنَـــفْسِـــهْ لِغـــيْرِهْ
أَمْـــرًا كَـــانْ وَحُـــدُوثُ العَـــالَمْ
بِأَمْـــرِهْ
الـوَاحَدْ اسْـمْ الوَدُودْ يَنْفِي عَنْهُ التَّعَـدُّدْ
لاَ حَـاسَدْ لاَ مَحْسُـودْ لاَ عَرَضْ وَلاَ جَـرَمْ

فالله عز وجل موجود ولا علة لوجوده ، بل هو علة كل شيء ، وهو غير مفتقر للعالم ، والعالم حادث، و" كل حادث لا بدّ له من محدث ... وهذا المحدث إما أن يكون واجب الوجود أو جائزه ، فلو كان جائزه لجاز عليه العدم ، فإن تحقق عدمه ظل العالم في حاجة إلى محدث ، وإن لم يتحقق عدمه

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

لكان حادثا ولاحتاج هو أيضا إلى محدث ومحدثه إلى محدث ، فإن رجع إلى الأول مباشرة أو بالواسطة فدور وإلا فإن تتابع المحدثون فتسلسل ، وكل من الدور والتسلسل باطل فبطل ما أدى إليه ، وهو أنه غير واجب الوجود ، وثبت أنه واجب الوجود " (**الزغبي ، زاهر : 1979 ، 1290**).

والله عز وجلّ غير مفتقر إلى المحل والمخصص ، فهو غير عرض ولا مفتقر إلى المخصص فقط فهو غير (جرم) ، وهو غير متعدد في ذاته ، بل هو الواحد الأحد الذي لا يجوز عليه التعدد أو المحل في المكان أو الزمان.

وهو غني عن كل ما عداه ، غني بذاته غير مفتقر للعالم ، وفي هذا يقول الإمام السنوسي : " أما استغناؤه جل وعز عن كل ما سواه فهو يوجب لله تعالى الوجود والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والتنزه عن النقص ، ويدخل في ذلك وجوب السمع له تعالى والبصر والكلام ، إذ لو لم تجب له تعالى هذه الصفات لكان محتاجا إلى المحدث والمحل ومن يدفع عنه هذه النقائص ، ويؤخذ منه تنزهه تعالى عن الأغراض في أفعاله وأحكامه ، وإلا لزم افتقاره تعالى إلى ما يحصّل له غرضه ... وكذا يؤخذ منه أيضا أنه لا يجب عليه تعالى فعل شيء من الممكنات أو تركه ، إذ لو وجب عليه تعالى شيء منها عقلا كالثواب مثلا لكان جلّ وعزّ مفتقرا إلى ذلك الشيء ليتكمل به غرضه ، إذ لا يجب في حقه إلا ما هو كمال له ، كيف وهو جلّ وعزّ الغني عن كل ما سواه " (**السنوسي ، أبو عبد الله محمد بن يوسف ، 2009، 30**).

وفي هذا الصدد يقول ابن خلوف :

القَـادَرْ هُـــوَ القَـدِيـرْ انْسَـبْ إِلَيْـهِ التَّأْثِـيرْ
انْفِ الـعَجْـزْ بَالتَّدْمِـيرْ فِـي أَسْفَـلْ التُّخـــمْ
إِرَادَتُـــهْ مُـــرِيـــدْ والكـرَاهَة لَـهُ مُضِـدْ
مُمَـيَّـزْ بِـهَا المُـرِيدْ لاَ عَـقْـلاً لاَ فَـهَـمْ
العِلْـمُ عَـالِمًـا فَـرْعًا يَتَعَـلَّـقُ جَـمْعـًا
بِالمَعْلُـومَـاتِ مَعـًا انْفِ الجَـهْلَ وَالوَهْـمْ
وَحَـيَاتُـهُ حَـيًّا أَمْـرُهُ مُـؤَدِّيَـا
انْـفِ عَـنْـهُ المُـوَتِـيَا حَـيَاتُـهُ دَائِـمْ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

السَّـــمْعُ سَـــمِـــيعًا لِلْمُـخَـــبِّ جَمِـــيعًا
انْفِ الصَّـــمَّ مُطِيعًا يَا فَـــاهَمْ النَّاظَـــمْ
كَـلاَمُـــهُ كَـــلاَمَـــا لاَ دِيَّـــا فِـــيهِ فَـــمَا
انْـــفِ عَنـــهُ بَكْـمَـــا كَـــلاَمُـــهُ قَـــائِـــمْ
البَـــصَـــرْ بَصـــــيرًا يُبْـــصِرْ بْـــلاَ نَاظِـــرَا
انْـــفِ عَـــيْنْ البَصـــرَا مُنـوَّرُ الظُّـــلَـــمْ
صِفَـــاتُ الله عِشْـــرِينْ بَالمُسْتَحِيـلْ رَبْعِـــينْ
انْفِ واثْبِـــتْ المُبِيـــنْ إِذَا كُـنْـتَ فَـــاهَمْ
الغَـــنِيَّ المُغْنـــــي فِـــي حَـــقِّ مَوْلاَنَا
كُـــلُّ شَـــيْءٍ للفَنَا مَـــا سِـــوَاهُ عَـــدَمْ
النَّفْـسِيـةَ وَالسَّـلْبِيـةَ يَا رَبِّ تُلْـطُفْ بِيّـــا

وهذا هو نفسه متن العقيدة الصغرى للسنوسي ، حيث يقول : " ويجب له تعالى السمع والبصر المتعلقان بجميع الموجودات ، والكلام المنزه عن الحرف والصوت والتقديم والتأخير ، والكل والبعض ، والسكوت ، المتعلق بما يتعلق به العلم من المتعلقات ، ودليل هذه الثلاثة الشرع . ويجب له تعالى الحياة لاستحالة وجود الصفات السابقة بدونها ... وأما المستحيل في حقه تعالى فكل ما ينافي هذه الصفات الواجبة " (**السنوسي ، أبو عبد الله محمد بن يوسف ، 2012 ، 121**).

وتلك أيضا هي لب العقيدة الأشعرية في الصفات ، فالأشاعرة – عموما – كان لهم تصور حاولوا فيه التوسط بين المعتزلة والمجسّمة ، فرفضوا التشبيه وأثبتوا الصفات المعنوية لله ، وقالوا إنّ صفات الله غير صفات الإنسان والمخلوقات ، فعلم الله ليس كالعلوم وقدرته ليست كالقدرة ، ورأوا أن هذه الصفات هي:

- القدرة ، فقدرة الله عندهم غير متناهية ولا يحدّها شيء.
- العلم.
- الإرادة.
- السمع والبصر.
- الكلام.

وهذه الصفات عندهم قديمة ، وهي صفات الذات ، أما الصفات المحدثة ، وهي صفات الأفعال ، فهي : كالخالق – الرازق – المعز – المذل ... وهنا قرر الأشاعرة قدم صفات الذات ، وحجتهم في ذلك أنها " لو كانت محدثة لأحدثها الله تعالى في ذاته ، وهذا محال ، لأنّ الله تعالى ليس محلا للحوادث ، ومن المحال أيضا أن يحدث الله تعالى صفات في غير ذاته . ويبقى احتمال أخير أن تكون الصفات محدثة قائمة بذاتها ، وهذا أيضا محال ، لأن الصفة لا يمكن أن تقوم بذاتها بدون موصوف " (**محمد علي ، عصام الدين ، 1994 ، 122**).

وهي العقيدة ذاتها التي نجدها في صغرى الإمام السنوسي ، ومن ثمّ في منظومة الشاعر الأخضر بن خلوف ، ولو شئنا لقلنا إن منظومة الأخضر بن خلوف هي واجهة أو شرح أو ترجمة لصغرى السنوسي ، لكنها تختلف عنها في كونها نظمت بلهجة دارجة ، رغم ما يشوبها من فصيح الاستعمال اللغوي الذي نراه لا يخرج عن نافلة نظم مثل تلك المنظومات العقدية .

خاتمة:

ذلكم هو صدى العقيدة السنوسية في منظومة من الشعر الملحون الجزائري ، منظومة تعكس حضور الثقافة الأشعرية التي رسخت في المشهد العقائدي العام بالجزائر ، وقد احتفت المنظومة الثقافية والتعليمية بهذه القصيدة وجعلتها ضمن برامجها التعليمية الرئيسة في المدونة التربوية / المدرسية طيلة قرون عدّة ، وهو ما يعكس مدى تأصّل العقائد السنوسية في الحركة الثقافية والفكرية الجزائرية عموما وكذا مكانتها في الوعي الشعبي / الجماهيري بشكل أعم .

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1997.
2. أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي : أم البراهين ، ويليها شرح أم البراهين لأبي عبد الله محمد بن عمر بن إبراهيم الملالي ، تحقيق خالد زهري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 2009.
3. أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي : ثلاث عقائد أشعرية ، دراسة وتحقيق : خالد زهري ، مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية ، تطوان ، المغرب ، ط1 ، 2012.
4. الأخضر بن خلوف : الديوان ، جمعه وقدمه : محمد بن الحاج الغوثي بخوشة ، نشر ابن خلدون ، الجزائر ، د.ط ، د.ت.
5. جمال الدين بوقلي حسن : ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع ، ج1 ، معهد الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان ، 1997.
6. حنا الفاخوري ، خليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية ، ج1 ، منشورات دار الجيل ، بيروت ، لبنان، 1982.
7. زاهر عزت الزغبي : رؤية إسلامية ، الله .. الإنسان .. الحقيقة ، مجلة الأزهر ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، ج5 ، س51 ، رجب 1399 هـ / يونيو 1979 م.
8. عصام الدين محمد علي : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، 1994.
9. محمد بن يلس التلمساني : الديوان ، مطبعة ابن خلدون ، تلمسان ، الجوائز ، 1371 هـ.